■ الباب الثاني

جالب السعد

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

في السابع والعشرين من يونيه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف انتصر جولويس على جيمس ج. برادوك بالضربة القاضية ليصبح بطل العالم في الملاكمة وطار الزنوج في لانسنج وفي كل مكان من الفرح في أكبر احتفال بعزة الجنس عرفه جيلنا. أصبح كل صبي زنجي يحلم بأنه سيصبح البطل القادم ولم يكن أخي فلبرت، الذي أصبح ملاكماً جيداً في المدرسة، يختلف في ذلك. (أما أنا فكنت أحاول لعب كرة السلة نسبة لطول قامتي ولكني لم أنجح فيها). في خريف ذلك العام دخل فلبرت منافسات الهواة التي كانت تعقد في إستاد بردون بلانسنج. كان أداؤه جيدا واجتاز التصفيات الصعبة وكنت أذهب إلى الإستاد لأتفرج عليه في مباريات مثيرة. ربما وبدون أن أدري كنت أغار منه في سري. لم أكن أحب أن أرى إعجاب أخي الصغير ريجنالد بي يتحول تدريجياً إلى فلبرت.

كان الناس يثنون على فلبرت ويقولون إنه ملاكم بالطبيعة وبما أننا من نفس العائلة ظننت أن بإمكاني أن أصبح ملاكماً أيضاً ولذا نزلت إلى الحلبة. كان عمري ثلاثة عشر ولكن مع طولي وهيكلي الجسمي قلت : لهم إن عمري ستة عشر أي الحد الأدنى للتسجيل وكان أن صنفوني في درجة وزن الديك لأن وزني كان ١٢٨ رطلاً وضعني الاختيار مع صبي أبيض مبتدئ مثلي يدعى بيل بيترسون والذي لن أنساه أبداً. عندما جاء دورنا في مباريات

الهواة كان كل أخوتي وأي شخص أعرفه تقريباً هنالك وقد أتوا ليس بسببي ولكن لأني شقيق فلبرت الذي بدأ صيته يذيع.

نزلت ماشياً بين الجموع التي ملأت المقاعد ودخلت إلى الحلبة. نودي على اسمي واسم بيل بيترسون وتم تقديمنا للجمهور ثم نادانا الحكم وقال كلاماً عن ضرورة اللعب النظيف ثم ضرب الجرس وترك كل منا ركنه وقمنا للمعركة. كنت خائفاً ولكن ما لم أكن أعلمه هو أن بيل بيترسون كان خائفاً أيضاً كما قال لي بعد ذلك. كان خائفاً أنني سأؤذيه إلى الدرجة التي لكمني فيها إلى أن أطاحني أيضاً بالضربة القاضية.

أشان فعله ذلك سمعتي لدرجة أنني اختبأت عملياً من الناس. لا يمكن لزنجي أن يدع أبيض يهزمه ثم يعود إلى الحي مرفوع الرأس خاصة في تلك الأيام عندما كانت الرياضة وعالم الفن هما المجالان الوحيدان المفتوحان أمام الزنوج وكانت الملاكمة هي المجال الوحيد الذي يستطيع فيه الزنجي أن يهزم الرجل الأبيض بدون أن يشنقوه. عندما ظهرت مرة أخرى سخر مني معارفي من الزنوج لدرجة عرفت معها أن علي أن أفعل شيئاً ما. أما أسوأ إذلال لي فكان موقف أخي فلبرت: فهو لم يذكر المباراة أمامي أبداً. كان شعوره نحوي ظاهراً في كونه يتحاشى النظر إلي. لذلك عدت إلى الإستاد وأصبحت أتدرب بعنف. كنت أضرب الأكياس وأقفز على الحبل وأجري .. إلخ. وأخيراً ذهبت وسجلت اسمي لمنازلة بيل بيترسون وفي هذه المرة تقرر أن تعقد المباراة في مدينة إلما موطن بيترسون.

كان الشيء الوحيد الجميل في المباراة الثانية هو أنه لم يكن هنالك بالكاد شخص يعرفني وكنت على وجه الخصوص سعيداً لعدم وجود ريجنالد. ومع بداية المباراة رأيت قبضة في الجو ثم أرض الحلبة وبعد عشر ثوان سمعت صوت الحكم يقول: « عشرة! » من فوقي. ربما كانت تلك أقصر مباراة ملاكمة في التاريخ. كنت منبطحاً أسمع الحكم ينادي بالعدد ولا أستطيع حراكاً وفي حقيقة الأمر لم أكن أريد التحرك.

كانت تجربتي مع ذلك الصبي الأبيض هي بداية ونهاية تجربتي في ميدان الملاكمة وفي كثير من المرات بعد أن أصبحت مسلماً كنت أفكر فيها وأقول لنفسي تلك إرادة الله أوقفتني إذ لربما جرحت أو تشوه وجهي لو استمررت.

بعد ذلك بمدة وأنا في المدرسة دخلت الصف الدراسي وقبعتي على رأسي بدلاً من أن أزيلها من رأسي كما هو مفروض فما كان من المدرس الذي كان أبيض إلا أن أمرني أن أستمر أتمشى بين الصفوف وقبعتي على رأسي. « بتلك الطريقة يستطيع كل شخص رؤيتك بينما نحن مستمرون في دراستنا حتى يستطيع من يود التعليم أن

يتعلم .» هذا ما قاله الأستاذ. كنت ما زلت ماشياً حينما قام الأستاذ من درجه واستدار نحو السبورة ليكتب شيئاً ما عليها. كان الكل ينظرون حينما اتجهت أنا في تلك اللحظة إلى مقعده وخطفت دبوساً ووضعته على مقعده وحينما استدار نحو كرسيه كنت أنا بعيداً عن مسرح الجريمة أدور في مؤخرة الغرفة. وحينما جلس سمعته يصرخ ولَحَظته يقفز وأنا أهرب من الباب.

مع مثل هذا السجل لم أصدم عندما ظهر قرار فصلي من المدرسة. ظننت أنها ستكون فكرة مبهجة لي وهي أنني إذا لم يفرض علي الذهاب للمدرسة فسيُسمح لي بالبقاء مع آل يوهاناس والتجول بحرية في المدينة أو ربما أستطيع الحصول على عمل إذ كنت أريد مصاريف للجيب. ولكنني صدمت عندما حضر أحد موظفي الولاية لم أره من قبل وأخذني للمحكمة. هنالك أخبروني أنني سأذهب إلى مدرسة إصلاحية وكان عمري ما زال ثلاثة عشرة عاما. كان علي أولاً أن أذهب إلى بيت الحجز الذي كان في مدينة ميسون بولاية ميشجان وعلى بعد اثنى عشر ميلاً من لانسينج. بيت الحجز هو المكان الذي يؤخذ إليه الأحداث في مقاطعة انجهام في انتظار « السماع » قبل أخذهم إلى الإصلاحية.

كان موظف المقاطعة الأبيض يدعى مستر ماينارد ألن وكان ألطف كثيراً من رجال الرعاية الاجتماعية لدرجة أنه قال بعض الكلمات مواسيا آل يوهاناس ومسز ادكوك « والواد » الكبير الذين كانوا يبكون. أما أنا فلم أكن أبكي وجمعت ملابسي القليلة في صندوق وركبنا أنا ومستر ألن العربة إلى ميسون . في الطريق تكلم معي ضابط الأحداث قائلاً إن علاماتي في المدرسة توضح إنني إذا ما استقمت فقد أصنع من نفسي شيئاً ما وأخبرني أن الإصلاحيات لا تستحق السمعة السيئة التي لها وأن كلمة « إصلاح » تعني التغيير للأحسن. كذلك أخبرني أن المدرسة التي أنا ذاهب إليها ما هي إلا مكان يستطيع فيه الصبيان مثلي أن يدركوا خطأهم ويبدأون حياة جديدة كي يصبحوا أشخاصاً يفخر بهم كل إنسان وقال لي إن السيدة التي تدير بيت الحجز – مسز سويرلن – وزوجها أناس طيبون جداً.

كانوا فعلاً أناساً طيبين وكانت مسز سويرلن أضخم من زوجها فيما أذكر – كبيرة الصدر ونشطة وضحوكة بينما زوجها نحيف، أسود الشعر والشارب، ذو وجه أحمر هادئ ومهذب حتى معي. أحبوني من أول نظرة. أخذتني مسز سويرلن إلى غرفتي – غرفتي أنا – أول غرفة لي بمفردي. كانت في مبنى كبير يشبه داخليات الطلبة ومن النوع الذي يبقى فيه الصبيان المحجوزون في تلك الأيام في معظم المدن. اكتشفت بعد ذلك ولدهشتي أنه مسموح لي الأكل مع آل سويرلن في نفس المائدة وكانت تلك أول مرة أجلس فيها للأكل مع أناس بيض – على الأقل مع أناس كبار –

منذ اجتماعات أصحاب المذهب السبتي. لم أكن في ذلك وحدي بالطبع فكل الصبيان يأكلون في نفس المائدة مع مسز سويرلن وزوجها فيما عدا المشاغبين جداً من الصبيان والفتيات كالهاربين المقبوضين فكانوا يحبسون في غرفهم.

كانت مساعدة الطباخ امرأة بيضاء تدعى لوسيل لاثروب. (واسترجاعي لهذه الأسماء يدهشني لأنني لم أفكر فيها لأكثر من عشرين عاماً .) عاملتني مسز لاثروب بطيبة وكان زوجها الذي يدعى دوان لاثروب يعمل في مكان آخر ولكنه يقضي عطلة نهاية الأسبوع مع زوجته في بيت الحجز. بدأت في بيت الحجز ألاحظ مرة أخرى كيف أن رائحة البيض مختلفة وأن طعامهم ليس متبلاً كطعام الزنوج. بدأت أيضاً أمسح الأرض وأكنس وأغبر في بيت سويرلن مثلما كنت أفعل أنا والواد الكبير في بيت آل يوهاناس.

كان الكل يحبني وجعلني حبهم مقبولاً لأنني كنت فألاً حسناً كما عرفت مؤخراً. كانوا يتحدثون بحرية عن كل شيء وأنا في وسطهم كما يتكلم الإنسان أمام طائر أليف. كانوا يتكلمون حتى عن الزنوج وكأنني لست موجوداً أو لا أفهم ما يقولون ويرددون كلمة نيجر « عبد » مائة مرة في اليوم. أعتقد أنهم لم يكونوا يقصدون الإساءة وربما كانت نواياهم حسنة. كانوا كلهم كذلك بمن فيهم الطباخ ولوسيل وزوجها دوان. أذكر مرة أن مستر سويرلن، ذلك الرجل الطيب، عاد من مدينة لانسنج التي مر فيها بحي الزنوج وقال لمسز سويرلن وأنا أمامه: « لا أدري كيف يمكن لهؤلاء (النيجروز) أن يكونوا بهذه السعادة مع هذا الفقر » . ثم تحدث عن كيف أنهم يعيشون في أكواخ بينما تقف أمامها عرباتهم الكبيرة اللامعة. وردت مسز سويرلن وأنا ما زلت أمامها « هؤلاء هم (النيجرز) وتلك هي طريقتهم ولا شيء غير ذلك .» بقى هذا المنظر في ذهني دائماً.

كذلك كان البيض الآخرون – وأغلبهم سياسيون محليون – عندما يحضرون لزيارة آل سويرلن. كان موضوع الزنوج أحد مواضيعهم المفضلة. أحد أولئك الزوار كان القاضي المسؤول عني في لانسنج والذي كان صديقاً حميماً لآل سويرلن. كان عندما يحضر يسأل عني فينادونني له وحينها كان يتفحصني بعينيه من فوق لتحت وعلى وجهه علامات الرضا كمن يتفحص حصاناً أصيلاً أو كلباً ذا نسب أصيل. كنت أدري أنهم أخبروه عن سلوكي واجتهادي في العمل.

ما أحاول أن أقوله هنا هو أنه لم يخطر ببالهم أبداً إنني أستطيع أن أفهم وأنني لست حيواناً للتدليل. لم يشاءوا أن ينصفوني كإنسان له نفس الإحساس والذكاء والفهم الذي لفتى أبيض في مثل وضعي. غير أن تلك تاريخيًّا كانت حالة البيض في نظرتهم للرجل الأسود وهي أننا قد نكون بينهم ولكننا لا نعتبر منهم وحتى عندما

يبدو أنهم فتحوا لنا الباب يظل الباب موصداً. وهكذا لم يحسوا بي أبداً.

هذا هو نوع التنازل والتواضع الذي أحاول اليوم أن أوضحه للزنوج المتعطشين للاندماج في المجتمع الأبيض مع أصدقائهم البيض « المتحررين» ومن يسمون «بالبيض الطيبين» أو أغلبهم على أية حال. لا تهتم بلطف الشخص نحوك بل عليك أن تتذكر دائماً أن ذلك الشخص لا يراك كما يرى جنسه، قد يقف معك عند الملمة الخفيفة وليس عند الثقيلة وفي ساعة الجد ستكتشف قناعته التامة المتأصلة في باطنه وهي أنه أحسن من أي شخص أسود.

لم يكن لدى سوى شعور مبهم بذلك في سنواتي في بيت الحجز. كنت أقوم بواجباتي الصغيرة داخل البيت وكان كل شيء على ما يرام وفي كل عطلة نهاية أسبوع لم يكونوا يمانعون في أن أذهب إلى لانسنج لقضاء فترة ما بعد الظهيرة أو المساء ومع أن عمري لم يكن كبيراً بدرجة تسمح لي بالبقاء في شوارع حي الزنوج حتى الليل فقد كان جسمي كبيرا ولم يحدث أن سألني أحد عن ذلك. لقد صرت أكبر حجماً حتى من ولفرد وفلبرت اللذين بدآ يقابلان الفتيات في حفلات المدرسة وأماكن أخرى كما عرفوني ببعض الفتيات. ولكني لم أكن أستلطف من استلطفتني منهن والعكس بالعكس. لم أكن أعرف الرقص على أية حال ولم أر معنى لإضاعة بريزة على الفتيات. كانت متعتي هي في التجول أمسيات السبت بين نوادي ومطاعم الزنوج حيث كانت صناديق الموسيقى تصرخ بأغنية أركسين هوكنز « تقاطع التوكسيدو » وأغنية سلم سلام «فلوجي الأشتر» وما شابه ذلك. أحيانا كانت تحضر الفرق الكبرى من نيويورك وتقيم حفلة رقص كبيرة لليلة واحدة في لانسنج ويخرج كل من له قدمان لمشاهدة أي مطرب أو عازف يحمل اسم نيويورك. كانت تلك أول مرة أسمع فيها بأسماء مثل لكي طومسون وميلت جاكسون الذين سأتعرف بهم جيداً في هارلم مستقبلاً.

عندما يحين دور معظم الصغار في بيت الحجز كانوا يؤخذون إلى المدرسة الإصلاحية ولكن عندما جاء دوري – مرتين أو ثلاثا – لم يهتم أحد بذلك. كنت أشاهد الصغار يجيئون ويذهبون إلا أنا وذلك من فعل سويرلن ولكني كنت بذلك سعيداً وممتناً لأنني لم أكن أود أن أترك بيت الحجز.

أخبرتني مسز سويرلن بأنني سأدخل مدرسة ميسون الثانوية الصغرى والتي كانت المدرسة الوحيدة في البلدة. لم يحدث أن انضم محتجز من بيت الحجز إلى تلك المدرسة ، على الأقل وهو تحت الاحتجاز. أدخلوني في الصف السابع وكان أطفال الليونز هم الزنوج الوحيدون في المدرسة وهم أصغر مني عمراً وفي الصفوف الأولى. كنا أنا وأبناء الليونز الزنوج الوحيدين في المدينة وكانوا زنوجاً محترمين فأبوهم مستر ليونز – رجل شاطر ومجد ومسز ليونز امرأة طيبة جداً . كانت هي وأمي – كما سمعت أمي تقول – اثنتين

من الأربع اللاتي من جزر الهند الغربية في كل ولاية ميشجان.

اكتشفت أن بعض الصبيان البيض ألطف كثيراً من بعض من عرفتهم في لانسينج وبالرغم من أن بعضهم – بمن فيهم المدرسين – كانوا ينادونني « نيجر » إلا أنه كان واضحاً لي أنهم لم يكونوا يقصدون الإساءة مثلهم مثل آل سويرلن في ذلك. وبصفتي الزنجي الوحيد في الصف كانت لي شعبية شديدة وربما كان ذلك جزئيًا لكوني كنت بدعة مختلفة في أعينهم. كان الكل يتودد إلي ويعطيني أسبقية لكنني أيضاً استفدت من كوني مرضياً عني من تلك المرأة المهمة جداً في مدينة ميسون – مسز سويرلن. لا أحد في ميسون يجرؤ على أن يغضبها. وكان هنالك دائماً شخص يطلب مني أن أنضم لهذه الجمعية أو أترأس تلك: الجمعية الأدبية، فريق كرة السلة أو أي نوع من النشاط الإضافي ولم أكن أرفض أبداً.

بعد دخولي المدرسة بفترة قصيرة ولأن مسز سويرلن كانت تعلم بحاجتي لبعض النقود وجدت لي عملاً في مطعم أغسل فيه الأطباق وكان رئيسي في العمل والد أحد زملائي في المدرسة وكنا أنا وذلك الزميل كثيراً ما نقضي وقتنا سويًا كما أن أسرته كانت تسكن عند المطعم. كان العمل جيداً وفي مساء كل جمعة حينما استلم راتبي كنت أشعر وكأن طولي صار عشرة أقدام. لا أذكر كم كان راتبي ولكنه كان يبدو لي مبلغاً محترماً وكانت تلك أول مرة في حياتي تكون بحوزتي مبالغ تذكر وكلها – لي أنا وحدي. وعندما صار عندي مبلغ كاف اشتريت لنفسي بذلة خضراء وبعض الأحذية كما كنت في المدرسة أدعو زملائي وأشتري لهم بعض الحاجيات الصغيرة مثلما كانوا يفعلون معي.

كانت مادتا التاريخ واللغة الإنجليزية هي علومي المفضلة وكان يدرّس اللغة الإنجليزية رجل يدعى مستر أوستروسكي، فيما أذكر وكان دائما يعطينا النصائح عن كيف نصبح شخصاً مهماً في هذه الحياة. والذي لم يكن يعجبني في مدرس مادة التاريخ – هو ولعه بدعابات الزنوج. في أحد المرات أثناء أسبوعي الأول في المدرسة إذ به يغني وأنا أدخل الفصل: « بعيداً هنالك في حقول القطن، بعض الناس يقولون أن النيجرو لا يسرق» يا له من سخف ! أحببت مادة التاريخ ولكني لم أحب مستر وليامز. أذكر مرة وحينما وصلنا إلى ذلك الجزء عن تاريخ الزنوج والذي كان مجرد فقرة واحدة في الكتاب، قرأها مستر وليامز ضاحكاً وبنفس واحد رافعاً صوته عن كيف كان الزنوج أرقاء وكيف تم تحريرهم وكيف أنهم في العادة كسولون وأغبياء وعديمو التدبير. أذكر أيضاً أنه أضاف وهو يضحك معلومة أنثروبولوجية من عنداياته إذ قال: « إن أقدام الزنوج كبيرة لدرجة أنهم حينما يمشون لا يتركون أثراً وإنما يتركون حفرة في الأرض».

يؤسفني أن أقول إن الرياضيات كانت أكثر مادة أكرهها وقد فكرت في سبب ذلك وأعتقد أن السبب هو أن الرياضيات لا تترك مكاناً للجدل وإذا أنت أخطأت فيها فلا يمكن أن تجادل في ذلك.

كانت كرة السلة شيئاً مهمًّا في حياتي فقد كنت من أعضاء فريق المدرسة وكنا نسافر لننازل فرق المدن المجاورة مثل هاول وشارلوت وحينما أظهر في إحدى هذه الإستادات كان المشاهدون يسمعونني كلمات مثل « نيجر وكون » وأحياناً « راستوس ». لم يكن ذلك يزعج زملائي في الفريق أو حتى مدربي مطلقاً وحتى أنا لم تكن تزعجني إلا بطريقة مبهمة وبعيدة. كانت نفسيتي مثل كثير من الزنوج حتى اليوم الذين كان يؤلمهم ذلك داخلياً، إلا أنهم لا يفتأون يخبرون الرجل الأبيض أن حالتهم في تحسن. لقد سمع الزنوج ذلك مراراً وتكراراً إلى أن أصبحوا يصدقونه أو على الأقل يتقبلونه.

بعد نهاية كل مباراة تقام عادة حفلة رقص للطلاب والطالبات. كنت حينما أدخل مع زملائي اللاعبين إلى قاعة الحفل في المدرسة التي نزور، أشعر بالآخرين ينكمشون مني إلا أنهم سرعان ما تنبسط أساريرهم حينما يرون أنني لا أحاول الاختلاط مع الفتيات البيضاوات. كنت أبقى مع أحد زملائي من الفريق أو أعزل نفسي وقد تعلمت أن أفعل ذلك بدون أن يبدو ملحوظاً. حتى في المدرسة كنت أحس بذلك الحاجز النفسي بالرغم من الابتسامات. لم يكن مفروضاً في « جالب السعد » أن يراقص الفتيات البيضاوات. كانت تلك رسالة نفسية منهم ومن داخلي وأنا فخور بأن أقول ذلك عن نفسي: كنت أقف هنا وهناك وأتحدث وأضحك معهم وأشرب من عصير الفواكه وأتناول بعض الساندوتشات ثم أقدم أي اعتذار وأنسحب.

كانت تلك الحفلات من النوع المعروف في المدن الصغيرة. أحياناً يأتون بفرقة موسيقية بيضاء من لانسينج لتعزف ولكن في أغلب الأوقات كان الفونوغراف هو مصدر الموسيقى تصخب منه أصوات معزوفة جلن ميلر « لحن ليلة مقمرة » حيث كانت شعبيته كبيرة في تلك الأيام – أو أصوات فرقة نقاط الحبر المشهورة وهي تغني « لو لم أكن أهتم ! ».

كنت أستغرق وقتاً طويلاً أفكر بظاهرة غريبة وهي أن كثيراً من أبناء مدينة ميسون البيض خاصة من كانت معرفتهم بي وثيقة أو رفقائي يضعونني في موقف حرج مع الفتيات البيضاوات ويشجعونني على التقرب إليهن وإغرائهن وأحياناً مع أخواتهم. كانوا يقولون لي : إنهم قضوا وطرهم مع هذه البنت أو تلك بمن فيهن أخواتهم أو أنهم حاولوا وفشلوا. بعد ذلك بزمن فهمت السر في ذلك: كانوا يتخيلون أنهم لو جعلوا فتاة ما تحطم التقاليد وتذهب معي إلى مكان ما سيتمكنون عندئذ من ابتزاز تلك الفتاة وقضاء وطرهم معها.

يبدو أن الصبيان البيض كانوا يعتقدون أنني بوصفي زنجياً من الطبيعي أن أفهم أكثر منهم في أمور الجنس والغرام وأنني غريزيًا أعرف ما ينبغي أن أفعل وأقول مع فتياتهم. ما لم أقله لأي شخص هو أنني فعلاً أعجبت ببعض الفتيات البيضاوات كما أعجب بي بعضهن وكن يلمحن لي بذلك بأكثر من طريقة ولكن ما أن نجد أنفسنا على انفراد أو على قرب إلا ويأتي بيننا حاجز. أما الفتيات التي كنت أتمناهن حقيقة فكانتا فتاتين زنجيتين عرفني بهما ولفرد أو فلبرت في لانسنج، ولكن كانت تنقصني الشجاعة.

كنت أعلم مما كنت أسمعه وأراه وأنا أتجول في أمسيات السبت في حي الزنوج، أن اختلاط الأجناس يحدث في لانسنج ولكن الغريب أن ذلك لم يؤثر في. كان كل زنجي في لانسنج يعلم أن الرجال البيض يقودون عرباتهم في شوارع معينة في أحياء الزنوج ويلتقطون بعض بنات الهوى من الشارع. من الجانب الآخر كان هنالك جسر يفصل بين الحي الزنجي وحي البولونيين الأمريكيين تعبره الفتيات البيضاوات راكبات أو راحلات ويلتقطن بعض الرجال الزنوج الذين كانوا ينتظرونهن في تلك المنطقة. كانت نساء لانسنج البيضاوات مشهورات بالجري وراء الرجال الزنوج حتى في تلك الأيام ولم أكن أعرف حينها أن النساء البيض يعتقدن أن للزنوج الرجال قوة جنسية خارقة. لم يحدث في لانسنج أن تسبب هذا النوع من الاختلاط في أية مشاكل وأتخيل أن الجميع كان يرى فيه شيئاً عاديًا بمن فيهم أنا.

على أية حال ومن تجربتي كفتى غر في مدرسة لانسنج تعلمت أن أتفادى موضوع الاختلاط، على الأقل في أول عامين لي بالمدرسة. ثم حدث وأنا في الصف السابع أن انتخبني تلامذة الصف عريفاً للفصل وأدهشني ذلك وقتها أكثر مما أدهش الآخرين ولكني أفهم لماذا فعلوا ذلك. كانت درجاتي العلمية من أعلى الدرجات في الصف وكنت فريداً ككلب بنفسجي. ولا أخفي عليكم أنني كنت فخوراً بذلك وفي حقيقة الأمر نسيت أنني زنجي وكنت مثابراً أعمل بجد وبكل طريقة حتى أكون أبيض. ذلك هو السبب أنني أقضي معظم حياتي أنصح الأمريكيين السود أن محاولتهم الاندماج في المجتمع الأبيض إنما هي مضيعة للوقت فأنا أعلم ذلك من تجربتي الشخصية إذ أنني حاولت جهدي ولم أنجح.

« كم نحن فخورون بك يا مالكوم ! » ذلك ما هتفت به مسز سويرلن عندما سمعت باختياري عريفاً للصف. كان الخبر قد انتشر في جميع أرجاء المطعم الذي أعمل فيه وحتى مستر ماينرد ألن ضابط الرعاية – الذي كان يزورني من حين لآخر – أثنى علي. قال إنه لم ير أحسن مني كبرهان على جدوى المدرسة « الإصلاحية ». لقد كنت أحبه جداً ما عدا شيئاً واحداً لم يعجبني فيه: تلميحه من آن لآخر بأن أمي خذلتنا.

كنت أزور عائلة الليونز بكثرة وكانوا يعاملونني كواحد منهم كما كنت ألقى نفس الشعور الدافئ عندما كنت أزور إخوتي وأخواتي وأسرة يوهاناس في لانسنج.

شيء واحد أزعجني في إحدي المرات – كنت الزنجي الوحيد في الصالة عندما تم عرض فيلم « ذهب مع الريح » وعندما بدأت بترفلاي ماكوين « الخادمة الزنجية» تظهر على الشاشة أردت أن اختبئ تحت المقاعد.

كنت أذهب إلى لانسنج كل يوم سبت تقريباً وقد قارب عمري الرابعة عشر وكان ولفرد وهلدا ما زالا يسكنان في بيتنا القديم. كانت هلدا تحتفظ بالبيت منظماً ونظيفاً وأحسن من حالته في أوقات أمي العصيبة ونحن الصغار نجري داخل المنزل. كان ولفرد يعمل ما سنحت له الفرصة ويقرأ أي كتاب تقع عليه عيناه كذلك بدأ اسم فلبرت يشتهر كواحد من أميز الملاكمين الهواة وتنبأ له الكثيرون بمستقبل باهر كملاكم محترف. أما أنا وريجنالد فقد عدنا أصدقاء بعد مهزلة ملاكمتي. كنت أبتهج كثيراً عندما أقوم بزيارته وولزلي عند مستر وليامز وكنت أدس في جيب كل منهم دولارين كمصروف. كذلك كان الصغيران يفون وروبرت بخير في منزل السيدة الآتية من جزر الهند الغربية، مسز ماكجوير. كنت أعطي كل منهما بريزة وأشعر بالسعادة وأنا أراهم يكبرون.

لم نكن نتحدث عن أمنا إلا لماما أما أبونا فلم نذكره على الإطلاق لأن لا أحد منا كان يدري ما ينبغي أن يقوله ولم نكن نريد لأحد أن يذكر اسم أمنا فيما أعتقد . ومع ذلك كنا نذهب لزيارتها في مستشفى كالامازو من آن لآخر وكنا نحن الكبار نذهب فرادي في أغلب الأحيان لأن الزيارة كانت تجربة يفضل الواحد منا أن يقوم بها لوحده حتى لو كان رفيقك أخاً أو أختا لك.

أما أكثر زيارة أتذكرها في ذلك الوقت فقد كانت وأنا في نهاية الصف السابع حينما حضرت أختي الكبيرة من زوجة أبي الأولى - واسمها «إللا» - لزيارتنا من بوسطن. كان ولفرد وهلدا يراسلونها بانتظام كما كتبت لها أنا مرة بناء على نصيحة من هلدا عندما كنت أسكن مع آل سويرلن. كم كنا سعداء عندما كتبت لنا تقول : إنها ستحضر إلى لانسنج وكان أهم انطباع تركه قدومها – على الأقل في ذهني أنا – هو أنها أول امرأة سوداء ذات كبرياء أراها في حياتي. كانت ببساطة، تفخر بلونها الداكن جدًّا ولم يكن ذلك مسموعاً به في لانسنج قبلاً.

لم أكن أعرف تاريخ قدومها بالضبط إلى أن حضرت من المدرسة إلى البيت ذات مرة لأجدها هنالك. احتضنتني ثم وقفت تتفحصني. كانت امرأة ذات شخصية قوية، أقوى حتى من مسز سويرلن ولم تكن إللا داكنة اللون فحسب بل كانت

كأبي، سوداء كالأبنوس. كانت تجلس وتتكلم وتتحرك بطريقة من لا يقف شيء دون حصوله على ما يريد. هذه إذن هي المرأة التي كان أبي دوما يفخر بها لأنها أخرجت الكثير من أفراد عائلتنا من جورجيا إلى بوسطن. كانت صاحبة أملاك كما يقول وسيدة مجتمع. هاجرت إلى الشمال خالية الوفاض ثم ثابرت وادخرت واستثمرت في ممتلكات زادت قيمتها ثم بدأت ترسل المال إلى أختها في جورجيا، ثم إلى أخت أخرى، ابن عم، ابن أخ، بنت أخت إلخ ... حتى يهاجروا إلى الشمال. كل ما سمعته عنها كان واضحاً في مظهرها وسلوكها ولم يبهرني شخص في حياتي مثلما بهرتني. كانت قد تزوجت للمرة الثانية بعد أن تطلقت من الطبيب، زوجها الأول.

ظلت إللا تسألني عن كل شيء – وكانت قد علمت باختياري عريفاً للصف – خاصة عن درجاتي العلمية وجريت وأحضرت لها بطاقة درجاتي المدرسية وكانت من أحسن ثلاث تقارير في الصف. أثنت إللا عليّ وسألتها عن أخيها إيرل وأختها ماري وردت بالأخبار المفرحة أن إيرل مطرب مع فرقة في بوسطن وأن اسمه الفني كان جيمي كارلتون. ماري أيضاً كانت بخير.

أخبرتني إللا عن أقارب آخرين من الفرع الآخر للأسرة منهم عدد لم أسمع به مطلقاً من قبل ساعدتهم هي للخروج من جورجيا وهم بدورهم قاموا بمساعدة آخرين. « إننا آل لتل يجب أن نتعاون » ذلك ما كانت تقوله إللا وما كان يبهجني خاصة هو الطريقة التي قالت بها ذلك. كنت قد أصبحت فألاً حسناً ومع أن فرعنا العائلي تشتت وأصبحت أنسى أنني من عائلة آل لتل أعادتني إللا إلى وعيي. قالت :إن بعض أفراد الأسرة يعملون في وظائف جيدة وأن بعضهم يمتلك متاجر صغيرة وأن أغلبهم يمتلكون بيوتاً.

عندما اقترحت إللا أن نذهب كلنا نحن أفراد أسرة لتل معها لزيارة أمنا أمتنا لذلك. وشعرنا جميعاً أنه لو كان هنالك شخص واحد يمكنه مساعدة أمنا لتتعافى وتعود إلينا، فإن إللا هي ذلك الشخص. على أية حال ذهبنا ولأول مرة مجتمعين لزيارتها مع إللا في كالامازو. كانت أمنا تبتسم حينما أحضروها لترانا وكانت جد مندهشة لوجود إللا معنا. كانا نقيضين، امرأة بيضاء نحيفة، وأخرى سوداء ضخمة يحتضنان بعضهما البعض. لا أذكر أشياء كثيرة من تلك الزيارة إلا أننا تكلمنا كثيراً وأن كل شيء بيد إللا ثم تركناها وكلنا يشعر بشيء من الرضا عن الأوضاع أكثر مما شعرنا في أي وقت. أذكر أنني ولأول مرة شعرت بأننا وكأنما زرنا شخصاً مريضاً جسمانيا وليس نفسانياً، فقط طال مرضه.

بعد عدة أيام من ذلك وبعد أن زارت المنازل التي بها كل منا، غادرتنا إللا وذهبت إلى بوسطن ولكنها طلبت مني قبل أن تذهب أن أراسلها بانتظام . كذلك اقترحت عليّ أن أزورها في بوسطن لقضاء الأجازة الصيفية وقفزت فرحاً من ذلك.

أتى صيف عام ١٩٤٠ لأجد نفسي أقفز على حافلة الجريهاوند المسافرة إلى بوسطن أحمل حقيبة من الكرتون مرتدياً بذلتي الخضراء وحتى لو علقوا كلمة « ريفي » بخيط على رقبتي فلن يضيف ذلك معلومة جديدة للناظر . حينها لم تكن هنالك طرق المرور السريعة الحالية وكانت الحافلة تقف في كل ركن وكل قرية. ومن مقعدي – الخلفي إذا لم تخمن – كنت أنظر من النافذة إلى أمريكا الرجل الأبيض لمدة تبدو وكأنها شهر علماً بأنها كانت يوماً وبعض يوم.

أخيراً وصلنا وقابلتني إللا في موقف الحافلات وأخذتني إلى المنزل الذي كان يقع في شارع وومبك في حي شوجر هيل الذي يقع في روكسبري، أو هارلم مدينة بوسطن. قابلت هنالك زوج إللا الثاني، فرانك، الذي كان يعمل جندياً وأخاها إيرل المغني الذي يسمي نفسه جيمي كارلتون وأختها الصغرى ماري التي كانت جد مختلفة عن إللا. الغريب أنني كنت أنظر إلى ماري وكأنها أخت إللا وليست أختي مع أن كليهما أخواتي من أبي. ربما لأني أنا وإللا كنا نشبه بعضنا في أننا ذوو شخصيات قوية بينما كانت ماري هادئة وخجولة.

اهتمامات إللا كانت كثيرة وهي عضوة في عدة جمعيات ومنتديات وكانت من قادة ما يسمى « بالمجتمع الزنجي » في المدينة. هنالك أيضاً رأيت وقابلت عشرات السود يتكلمون بلغة المدينة المنمقة ولهم سلوك وطرق جعلتني أفغر فاهي طول الوقت. لم يكن من الممكن أن أتجاهل ذلك حتى لو أردت فالناس تتحدث عن شيكاجو وديترويت ونيويورك بعفوية غريبة ولم أكن أعلم أن العالم مليء بهذه الأعداد من الزنوج مثلما كنت أرى في الليل في حي روكسبري خاصة في أمسيات السبت. كانت هنالك أنوار النيون والنوادي الليلية وقاعات البلياردو والحانات والعربات التي يقودونها ورائحة المطاعم تملأ الشوارع بالأكلات الدسمة الدهنية التي يحبها ويطبخها الزنوج. صناديق الموسيقى تصرخ بأصوات ومعزوفات أرسكين هوكنز، ديوك إلنجتون، كوتي وليامز وعشرات الآخرين. لو قال لي أحدهم حينها : إنني سأتعرف يوماً ما إلى كل هؤلاء شخصيًّا لما صدقته. كانت الفرق الموسيقية الكبرى مثل أولئك تقدم عروضها في قاعة روزلاند ستيت في شارع ماساتشوستس في بوسطن – ليلة للزنوج وأخرى للبيض.

رأيت لأول مرة ثنائيات مختلفة، بيضاً وسوداً يمشون في الشوارع ذراعاً في ذراع. في أيام الآحاد حينما كانت تأخذني إللا أو ماري معها للكنيسة حيث رأيت كنائس للسود لم أر مثلها قبلاً. كانت أجمل كثيراً من كنائس البيض التي رأيتها في ميسون في ولاية ميشجان. في كنائس ميسون كان البيض يجلسون ويتعبدون في صمت أما زنوج بوسطن فكانوا مثل الزنوج في كل كنيسة رأيتهم فيها يلقون بأرواحهم وأجسادهم في الهواء أثناء العبادة.

مرتين أو ثلاثاً كتبت خطاباً لولفرد قاصداً به الجميع في لانسنج قائلاً لهم إنني سأصف لهم كل شيء حينما أعود.

ولكنني اكتشفت أنني لا أستطيع.

بدأت أمل من مدينة ميسون ولأول مرة في حياتي بدأت أضجر من وجودي وسط البيض بمجرد أن عدت إلى موطني ودخلت الصف الثامن بالمدرسة. كنت دوماً أفكر بما رأيت في بوسطن وعن شعوري وأنا هنالك. أعرف الآن الشعور الذي تملكني وأنا أكتشف لأول مرة أنني أنتمي لمجموعة كبيرة من بني جنسي – ذلكم هو سبب ضجري. لاحظ البيض – زملائي في الصف، آل سويرلن، أصحاب المطعم الذي أعمل فيه – لاحظوا التغيير فيَّ. بدأوا يقولون: « لقد تغيرت ولم تعد مالكوم الذي نعرفه. ما الذي جرى لك ؟ »

حافظت على موقفي كواحد من أوائل صفي وكانت المنافسة على المركز الأول فيما أذكر بيني وبين فتاة تدعى أودري سلاو وفتى يدعى جيمي كوتن. واستمر الوضع كذلك بينما ضجري وقلقي يزدادان خلال الفترة الدراسية الأولى إلى أن حدث ذات مرة وبينما الناجحون منا يستعدون للانتقال إلى الصف الثامن، حدث أول شيء غير مجرى حياتي . كنت وحدي في الصف مع مستر أوستروسكي، أستاذ اللغة الإنجليزية، وكان رجلاً طويلاً ذا بشرة بيضاء محمرة وشارب كث وعلى يديه تحصلت على أعلى الدرجات العلمية وكان سلوكه يجعلني أشعر وكأنه يحبني . كان كما قلت يسدي النصح بطبيعته عن ماذا نقرأ وماذا نفعل وما يجب أن نفكر فيه إلخ . كنا نسخر منه ومن نصائحه: لماذا بقي في ميسون بدلاً من أن يذهب إلى مكان آخر ؟ ليحصل على بعض «النجاح في الحياة » الذي يحدثنا عنه دوماً ! ».

أدرك أنه ربما كان حسن النية في نصحه لي ولا أعتقد أنه كان يقصد أن يحرجني. كانت في طبيعته كرجل أبيض وأنا أمامه تلميذ من أنجب تلاميذه بل من أنجب تلاميذ المدرسة أن يقول لي إن مستقبلي يتطلب أن « أبقى في مكاني.»

قال لي: «مالكوم، عليك أن تفكر فيما ستفعل في المستقبل. هل فكرت بذلك؟»

حقيقة الأمر أنني لم أفكر بذلك قبلاً ولست أدري ما جعلني أجيب قائلاً: «حسناً، نعم، سيدي، إني أفكر بأن أصبح محاميا.» طبعاً لم تعرف مدينة لانسنج محامياً أو طبيباً زنجياً في تلك الأيام ليصبح مثلاً أحتذي به. كل ما أعرفه أن المحامين لا يغسلون الأطباق مثلما كنت أنا أفعل.

أصيب مستر أوستروسكي بالدهشة فيما أذكر ومال إلى الخلف في مقعده ووضع يديه خلف رأسه ثم قال بنصف ابتسامة: « مالكوم إن أول ما ينبغي على المرء في هذه الحياة أن يفعله هو أن يكون واقعياً. أرجو ألا تسيء فهمي الآن فكلنا نحبك وأنت تعرف

ذلك ولكن عليك أن تصبح واقعياً كونك نيجرو فالمحاماة ليست هدفاً واقعياً للزنوج. عليك أن تفكر بالأشياء التي يمكنك أن تكونها فأنت مثلاً تجيد العمل اليدوي وتعمل بيديك أشياء مختلفة. الكل معجب بأدائك في ورشة النجارة فلماذا لا تفكر أن تصبح نجاراً ؟ إن الناس تحبك لشخصك وبإمكانك أن تحصل على أشغال كثيرة ».

بعد ذلك وكلما فكرت بما قال كلما ازداد قلقي وظلت تلك الأفكار تحوم حول رأسي.

ما جعل تلك الكلمات تبدأ في إزعاجي هو نصائح مستر أوستروسكي للآخرين في الصف وكلهم من البيض. كان أغلبهم قد قالوا إنهم يخططون ليصبحوا مزارعين ولكن الذين أرادوا أن يشقوا طريقهم بأنفسهم ويبدوا شيئاً جديداً وجدوا منه التشجيع. قال بعضهم وأغلبهم من الفتيات أنهم يريدون أن يصبحوا مدرسين بينما عدد غير قليل منهم قالوا إنهم يودون أن يحترفوا مهنة ما مثل صبي قال أنه يود أن يصبح وكيلاً للمقاطعة وآخر قال إنه يود أن يصبح بيطرياً بينما قالت فتاة واحدة أنها ستمتهن التمريض. كلهم قالوا أن مستر أوستروسكي شجعهم فيما يخططون له مع أنه لم يكن فيهم بالكاد من تحصل على درجات علمية أعلى أو مساوية لدرجاتي.

الغريب أنني لم أفكر فيها قبلاً بالطريقة التي فكرت فيها بعد ذلك ولكنني كنت على يقين أنني قد لا أكون أشياء كثيرة ولكني كنت تقريباً أكثر ذكاءً من أي من هؤلاء الشباب البيض. ولكن يبدو أنني لم أكن في نظرهم أحمل الذكاء الكافي لأصنع ما أشاء.

تلك كانت اللحظات التي بدأت فيها أتغير – من الداخل.

بدأت أتحاشى البيض. كنت أحضر إلى الصف وأجاوب فقط عندما أُسأل. أصبح مجرد الجلوس في صف مستر أوستروسكي إرهاقاً بدنياً ونفسياً. كنت في الماضي أتجاهل ما أسمعه عندما تقال كلمة نيجر ولكني أصبحت حينما أسمعها أقف وأحملق في القائل وحينها تظهر الدهشة على وجوههم. لم أعد أسمع أحدهم يناديني أو يلمح بتلك الكلمة أو يسألني: « ماذا جرى لي ؟ » لم يستطع أحد من الناس بما فيهم مدرسي أن يحار شيئاً فيما حدث لي. وكنت أدرك أنهم يتكلمون عن حالي. بعد عدة أسابيع من ذلك صارت تلك حالتهم في المطعم حيث كنت أغسل الصحون وكذلك في دار مسز سويرلن.

بعد ذلك بمدة قصيرة وفي أحد الأيام نادتني مسز سويرلن إلى غرفة الجلوس وهنالك وجدت مستر ماينارد الن ضابط الرعاية، ومن نظراتهما شعرت أن شيئاً ما سيحدث . أخبرتني مسز سويرلن أنه لا أحد يفهم لماذا – بعد أن كنت ممتازاً في

المدرسة وفي العمل وفي المسكن معهم وبعد أن بدأ كل إنسان في ميسون يحبني – لماذا بدأت أشعرهم كلهم بأني لم أعد سعيداً بينهم. أخبرتني أنه لم تعد هنالك حاجة لبقائي في بيت الحجز بعد ذلك وأنه قد تمت ترتيبات لأن أذهب وأعيش مع عائلة الليونز اللذين يحبونني كثيراً.

فجأة وقفت مسز سويرلن على قدميها ورفعت يديها قائلة : « أظن أنني سألتك مائة مرة، مالكوم، هل لك أن تخبرني ماذا جرى لك ؟ » صافحت يدها وهززتها قائلاً: « لا شيء، يا مسز سويرلن .» ثم قمت وجمعت حاجياتي وعدت لهم. وفي باب الغرفة رأيتها تمسح دموعها وحينها ساء شعوري. شكرتها وخرجت أمام مستر ألن الذي أخذني إلى الليونز.

حاول مستر ومسز ليونز وأطفالهم الذين قضيت بينهم شهرين وأنا أكمل الصف الثامن، حاولوا أيضاً أن يجعلوني أخبرهم بما جرى لي ولكنني لم أستطع إخبارهم أيضا.

كنت أقوم كل يوم سبت بزيارة إخوتي في لانسنج كما كنت أكتب خطاباً لإلا في بوسطن كل يومين تقريباً. وبدون أن أحدثها بالسبب قلت لها :إنني أود أن أحضر وأعيش في بوسطن ولا أدري كيف فعلت إلا ذلك ولكنها رتبت الأمور بحيث تنتقل الوصاية عليّ من محاكم ميشجان إلى ولاية ماساتشوستس وفي نفس الأسبوع الذي أكملت فيه الصف الثامن ركبت حافلة الجريهاوند إلى بوسطن.

لقد فكرت في موضوع انتقالي مرات عدة ولم يكن لأي انتقال في حياتي ذلك الأثر العميق والمحوري مثلما كان لتلك الرحلة. لو كنت بقيت في ميشجان لكنت تزوجت واحدة من الفتيات الزنجيات اللائي عرفت وأحببت في لانسنج وربما أصبحت أحد الذين يمسحون الأحذية في مبنى حكومة الولاية أو نادلاً في أحد نوادي الريف الاجتماعية في لانسنج أو اشتغلت في واحدة من الأعمال الحقيرة التي كان زنوج لانسنج في تلك الأيام يعتبرونها من علامات النجاح – أو ربما أصبحت نجاراً.

ما من عمل قمت به بعد ذلك إلا وضغطت على نفسي لكي أنجح في أدائه وكثيراً ما فكرت ماذا لو شجعني مستر أوستروسكي لكي أصبح محامياً. ربما كنت اليوم من بين البرجوازية السوداء من المهنيين في المدينة أشرب الكوكتيل وأمسح يدي كلسان حال المجموعة وواحدًا من « قادة » الجماهير المسحوقة بينما كل همي أن أتحصل على الفتات ترميه مجالس البيض المنافقين بينما يتسول «القادة » أمامهم مطالبين « بالاندماج ».

كل الحمد والشكر لله أنني ذهبت إلى بوسطن حينما ذهبت. لو لم أفعل ذلك لكنت ما زلت مسيحياً أسود مغسول الدماغ.